مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــــــ المجلد: 12 / العدد: 01 (مــاي 2024) ص 957- 975
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

ليبراليّة الإعلام: فوضى الأحكام واضطراب القيم

Media liberalism: chaos of judgments and disorder of values

عمران جودي
Amrane DJOUDI
جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)، amranedjoudi@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/12/19	تاريخ القبول: 2024/03/25	تاريخ النشر: 2024/05/16

الملخص:

اقترنت الأنظمة الغربية بأفكار وقيم الليبرالية – باعتبارها دولا صناعية – فاحتكمت إلى دساتير توافقية من شأنها أن ترسم خطا وهميّا بين سلطة الحكومة والحريات المدنية، وكذا تأطير كل عملياتها السياسية من خلال الصور الإعلامية التي كثيرا ما تأتي غامضة أو بالأحرى مشوهة.

من الإرادة الفردية للجميع تنبثق إرادة عامة، وهي تختلف نوعا ما عن إرادة الجميع وتمتلك خصائص تنفرد بها وكأننا أمام شخص معنوي مهمته تأليف الجماعة كيانا وإطارا، لكن ماذا لو كانت تلك الإرادة الفردية تنشد الهيمنة من خلال مؤسسات الدّولة والتي تعتبر بدورها أحد المكتسبات العقلانية للفرد في إطار مؤسساتي؟

نشير في هذا الصدد إلى دور إيديولوجيا الإعلام في صاغة قوالب جاهزة للذات من أجل فتح الطريق واسعا أمام رغبات سياسية وبورجوازية تتغذى من إفقار الذات الإنسانية من محتوياتها القيمية والمفهومية على حد سواء.

كلمات مفتاحية: اللّيبراليّة، الإعلام، الهيمنة، التّلفزيون، البرنامج، الصّوت، الصّورة.

Abstract:

Western regimes were associated with the ideas and values of liberalism - as industrialized countries - and resorted to consensual constitutions that would draw an imaginary line between government authority and civil liberties, as well as framing all their political operations through media images that were often ambiguous or rather distorted.

From the individual will of everyone emerges a general will, which is somewhat different from the will of everyone and possesses characteristics that are unique to it, as if we were faced with a moral person whose mission was to form the group as an entity and a framework. But what if that individual will seek domination through state institutions, which in turn is considered one of the individual's rational gains in Institutional framework?

In this regard, we point to the role of media ideology in formulating ready-made templates for the self in order to open the way wide for political and bourgeois desires that feed on the impoverishment of the human self from its value and conceptual contents alike.

Keywords: Liberalism, Media, Hegemony, Television, Programmed, Sound, Image.

المؤلف المرسل: عمران جودي، **الإيميل**: amranedjoudi@yahoo.fr

1- مقدّمة:

شهد القرن العشرين عمليّة تغيير عميقة ومستمرّة تفوق عمليّة التّغيّر الدّوري لمكانيزمات الطّبيعة، إنّها على الأصحّ عمليّة تغيّر شملت جميع مناحي الحياة، وكانت القوّة الدّافعة لهكذا تغيّر متمثّلة أساسا في التّقنيّة وسيطرة الأداتيّة على أغلب نشاطات الاجتماع البشري؛ فنظرا لهذا التطوّر الهائل للوسائل التكنولوجيّة في مجال الاتصالات أصبح مصطلح "القرية الصغيرة" وصفا متداولا وكثير الاستعمال للتّعبير عن العالم المعاصر؛ فأمريكا هي اليوم أكثر قربا من أوروبا، وأوروبا أكثر قربا من آسيا وإفريقيا، فالمسافات الجغرافية تتقلّص وتتقلص معها المسافات السياسية والثقافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والإنسانية، ولهذا التقلّص المادّي والمعنوي انعكاس كبير على القيم والمعايير السّائدة والمتوارثة، بحيث تغيّر نظرة الإنسان إلى الأشياء وتجعله أكثر ميولا للتأثّر بكل جديد ومعاصر ممّا يساهم في تقبل منتجات الهيمنة بصورة أكثر، وقد أدّت هذه التحوّلات أيضا إلى تغيّر مصطلحات جوهريّة ومقدّسة في كلّ اجتماع بشري وهو ما أصبح يهدّد حياة البشريّة قاطبة، ونقصد بالدّرجة الأولى عوامل الهدم التي من شأنها أن تصنع عالما منفلتا وزئبقيّا أمام كلّ ما هو إنسانيّ قيمي.

لعلّ الصّرخة التي أطلقها بودريار بخطورة التّلفزيون قد اصطدمت بالاهتمام الإعلامي مع ظهور مجموعة من المصطلحات والمفاهيم الجديدة، والتي بدأت تنتشر في السّاحة الفكريّة المعاصرة وتفرض نفسها على المهتمّين بمجال التربية والإعلام على حدّ سواء (هيمنة الصّورة، سحر الكلمة، السياسة الإعلاميّة، الحركة الإعلاميّة، أصدقاء الشّهرة،...)، أدّى هذا إلى ظهور صيحات عديدة تنادي بضرورة الوقوف على الآثار التي ألقت بظلالها على الإنسان ومأواه، حيث نجد أنّ هناك اهتماما علميّا وثقافيّا وأخلاقيّا وجماليّا وفلسفيّا، يعنى بضرورة إيجاد رؤية ترتكز على علاقة الإنسان بما يشاهده ويستقبله في بيته، وهي علاقة مغشوشة في غالبها تقوم على التعدّي والسّيطرة لا على التّوافق والانسجام؛ بمعنى أصبحنا نحبّ واقعا لا ننتمي إليه بتاتا ولا ينتمي إلينا بالمرّة، وأخذنا نتحدّث عن مشاكل بعيدة عن معيشنا اليومي لا لشيء سوى لأنّها إشكاليّات أثارها أشخاص عمرهم عمر حصص تلفزيونيّة وعلاقتهم بنا علاقة إلكترونيّة مضلّلة.

نحن إذن أمام نظرة مزدوجة: فهي من جهة مقاربة إجماليّة عن الموقف الذي اتّخذه الإنسان إزاء ما يمتلكه كصورة تحت وطأة الإعلام على ضوء مواقفه ونظريّاته الثّقافيّة والعلميّة، ومن جهة أخرى تعدّ محاولة للكشف عن أهمّ ما جاءت به النظريّات التّربويّة باسم المؤسّسة التّعليميّة وما تركته من أثر في العلم المعاصر، وما فتحته من آفاق منهجيّة جديدة واستبصارات نظريّة لتفسير العلاقة الثنائيّة بين التّربية والإعلام في بنيتها الدّاخلية وتحوّلاتها الثّورية، ونظرًا لكلّ المواقف التي تجسّدت في ميدان الأخلاقيّات الإعلاميّة، فإنّ المشكلة تتخطّى حدود صدق

النّظريّات إلى محاولة تشييدها على أساس متين، لذا يهدف المشروع (المعنى الأخلاقي في المشاهدة) إلى فتح آفاق واسعة أمام النّظرة الإنسانيّة إزاء الإعلام.

إنّ تحديد المفاهيم وتعريفها هي الخطوة الأولى في الدّراسات النّظريّة، وتزداد أهميّة ذلك حينما تكون المفاهيم المراد تعريفها أساسيّة في البحث مثل ذهنيّة دغدغة الأحلام والعقليّة التّخومية ورضاعة التّسلية، ومن هنا تميّزت فلسفة التّربية بنزعة عقليّة تستوحي روح العلم الخاصّة ومنهجه القائم على فهم الذّات الإنسانيّة، ومحاولة الرّبط بين ما هو إنساني قيمي وبين ما هو مادّي إشكالي، وسعيا إلى التّفصيل أكثر في الموضوع رأينا أن نطرح بعض الإشكاليّات التي تصبّ في جوهر البحث:

هل يمكن للإعلام أن يقدّم بديلا جديدا من حيث المفاهيم والأنماط الجديدة لتغيير سلوكيّات الإنسان إزاء واقعه؟

هل نحن أمام قوّة الإعلام أم ضعف الإنسان؟

ونحن بأمسّ الحاجة إلى فهم آخر لعلاقاتنا مع العالم الطّبيعي في عصر التّدهور الإعلامي الذي نعيشه، هل يمكن أن نقف على معنى لكلّ ما ننتجه كثقافة في الواقع من أجل الواقع وفقط؟ ثمّ ونحن على وعي بخطر زحزحة الصّورة الإعلاميّة لهذا الأخير أيّ حلّ للذّات مع مثيلاتها؟

نحن بحاجة إلى تحديد دقيق للمفاهيم التي تدخل بيوتنا وتنسج بخيوطها بدون أدنى وعي منّا من جهة وكيفية استقبالها من جهة أخرى، ثمّ إنّ المتأمّل إلى حال سكّان الأرض بشكل عام وسكّان المجتمعات المتقدمة صناعيّا بشكل خاص، سيتبيّن له وبما لا يدع مجالا للشّك أنّهم يتعاملون مع التربية بأخلاق تخومية وذهنية التّرف؛ والعقلية التخومية أو الأخلاقيات التخومية نظرة تقوم على مفاهيم رئيسيّة:

- أن العالم يحتوي على مؤونات لا نهاية من الموارد المتاحة للاستعمال البشري وأن هناك دائما المزيد منها لإشباع رغبات الإنسان بدون اعتبار للقيم.
- أنّ الإنسان مركز العالم وهو غير مطالب باحترام بقيّة الأجزاء التّي تؤلّفه.
- أنّ الإنسان ينظر إلى مستقبله بوصفه أمرا ماديّا يجب أن يتعلّق بالغايات ويستثمر في الوسائل، وقد ضلت العقلية التخوميّة تشكّل جانبا أساسيّا من التّفكير البشري على مدى نيف من الزّمن، وذلك بدءا من أخلاق السّعادة التي نادت بها المدارس اليونانيّة المتأخّرة وصولا إل الفترة المعاصرة مع دعوة شوبنهاور إلى تأمّل حياة النّاس التي تدفعها الرّغبة (الرّغبة في الاستمرار، الرّغبة في السّعادة، ...).

لا أعرف ما إذا كان بإمكاني تسمية تصرّفات الإنسان الحداثي بـ "ذهنية النّحو"، ثمّ ترجمتها إلى ما يقابلها باللّغة الفرنسيّة إلى "la mentalité déstinée"، ولا أستبعد أن تكون التّرجمة "la mentalité orientée" تعبير آخر لما يمكن تسميته بهيمنة الصّورة الجاهزة على الطّابع التّكويني في الشّخصيّة، سنكون بهذا المعنى إزاء مفهوم آخر للوجود تتحكّم فيه تقنيات البثّ المباشر والغير مباشر في صناعة "الأنا" والـ "نحن" على حدّ سواء؛ إنّه التّواجد الذي يعتبر العالم الطبيعي وسيلة لإشباع الاحتياجات البشرية دون اعتبار للإنسان كإنسان، فكلّ نشاط تأخذ به الممارسات بدون أيّ اعتبار للجوهر الإنساني سيؤول بالضّرورة إلى نتائج وخيمة.

تعتبر العقلية المالكة للقنوات التّلفزيونيّة أنّ المشاهد يقبع بمعزل عن الفهم الجادّ لما يحيط به من بيئة ومعيش يوميّ، وبذلك يصبح الهمّ الأوّل للإعلام هو السّيادة على الطّبيعة بنوعيها المادّي والعيني والسيطرة عليهما؛ فهي لا تقيم اعتبارا إلّا للتّكاليف الدّاخليّة المباشرة للتّكنولوجيا كالموارد المالية وتفعيل الرؤى السياسيّة التي تخدم غالبا أجندات استعماريّة هدّامة، وفي هذا تتجاهل تماما التّكاليف "القيميّة" كالضّرر الأسري والأثار التربويّة التي يصعب في العادة تأطيرها نظر للفصل الواضح بين تعاليم المجتمع وما ينتجه الإعلام كخطاب للتّعبير عن التّواجد الاجتماعي، هذا وتقيم الأخلاقيات التخومية وزنا كبيرا للاعتبارات الاقتصادية البحتة، وتعتبرها من أهمّ القيم في مجتمعاتنا الحديثة القائمة على التّصنيع والحدود القصوى للإنتاج والاستهلاك، وكلّما ابتعدنا عن الممارسات الاقتصادية في مجتمع ما يصبح من العبث الحديث عن الأشياء التي ليس لها قيمة ملموسة، كالجمال والصحّة والسّعادة والأمن.

ذهب دعاة مركزية الإنسان إلى القول أنّ كلّ موجود إنّما هو موجود فقط من أجل أن ينتفع به ويستفيد منه إنسان المركز، وهذا لا يأتي إلا عبر فرض القيود والتّنازلات على جميع الموجودات المحايثة والمفارقة على حدّ سواء، وقد ساعد على نشر هذه الأفكار دعاة الحداثة الغربية الذين دعوا إلى ضرورة هيمنة الإنسان (الغربي) على السّلطة من أجل ذاته في سبيل تحقيق كينونتها، الأمر الذي جعلها تحاول أن تبرز العلاقة بين الحداثة وموت الطّبيعة في العلم الحديث، حيث أدّت الحداثة الغربية إلى خلق صراع وهميّ على مستوى المركز في حدّ ذاته؛ فبدل الحديث عن إنسان يعيش مع أخيه الإنسان وفق منطق المال والأعمال، أصبحنا نتحدّث عن حيوان مريض يحتكم إلى منطق الدّاروينيّة في العيش والتّسيير.

2- البرنامج:

المشكلة أنّ ما يقدّمه التّلفزيون في الغالب لا ينتمي بتاتا إلى واقع يعيشه النّاس، بل هو واقع من نسج السّلطة السياسيّة والطّبقة البرجوازيّة وهو نسج يظهر على أوجه متعدّدة يتمّ تعليبه في الغالب بإشارات رنّانة يعتقد النّاس أنّهن ينتمون إليه وهو في الأصل بعيد عنهم، والحقّ كلّ الحقّ لا يعدو أن يكون سوى ضلال وتزييف للكلم؛

- أغان وطنيّة تعجّ بالماضي المجيد يتمّ استغلالها لسرقة الحاضر.

- شخصيّات تاريخيّة - كي لا أستعمل عبارة " شخصيّات وطنيّة" لأنّ الوطن فيه مسروق- يتمّ استدعاؤها في كلّ مناسبة لدغدغة مشاعر النّاس باسم الوفاء والإرث الجميل.

- الاستعمال العشوائي لكلمة "المودة" ومحاولة حصرها في مناطق معيّنة قصد فصل ذهنية المركز عن مربّع التّفكير العام الذي ومن المفروض أن تسهر عليه مؤسّسات أقلّ ما يمكن أن يقال فيها أنّها مؤسّسات الدّولة؛ لذا فذهنية الفصل هذه من شأنها أن تقتل كلّ اختلاف ثقافي باسم الهيمنة الثّقافيّة لمنطق القناة ومخرج الحصّة، وأنا على تمام الثّقة أنّ الفئة من الشّعب التي تتماها مع فبركة الثّقافة "المودة المحصورة" لا تعي أنّها مجرّد وسيلة فقط لتمرير نظرة استراتيجيّة تخدم مصالح القوى المالكة للخطاب، ولن أكون متماديا إذا قلت أنّ حتى منشّط الحصّة لا يعلم من الأمر سوى أنّه موظّف لتكريس الرّؤية القائمة خلف السّتار من جهة، ودغدغة أحلام المشاهدين ووضعهم في صورة يعرفون منها الشّكل لكنّهم يجهلون من مغزاها الرّائحة واللّون من جهة أخرى.

نحن داخل الكهف الأفلاطوني؛ بحيث يمكن القول أنّ سكّان الكهف هم أنفسهم مشاهدوا القنوات التّلفزيونيّة وكلّ ما يتمّ مشاهدته في الكهف والتّلفزيون مجرّد أشباح وزيف نراها على النّحو الذي هي عليه عن جهل ونقص دراية، ثمّ لنستبق الزّمن قليلا ونتساءل مع ذواتنا في وجودها الفردي: ألم يحن الوقت لنطرح إشكاليّات وجودنا في بعدها المادّي كون أنّ القضيّة هي قضيّة مآل مجهول يتفاداه البرنامج التّلفزيوني وكلّ إدارة القنوات؟

كانت لصيحة أحدهم " إذا بدأت الشّعوب تستفيق فإنّ على الحكومات مضاعفة الجرعة"، الأثر الواضح والبالغ في نجاح صيدليّة الحكومات المتعاقبة خاصّة في دول العالم الثّالث؛ جرعة المستطيل الأخضر وجرعة التّاريخ وجرعة الدّين وصولا إلى جرعة الهويّة،... نعم تجرّع الإنسان الذي يدّعي الحداثة وغزو المجهول حتّى الثّمالة، إلى درجة عجز فيها عن معرفة أدنى الواضحات التي يرضعها الإنسان بميلاده من منطلق أنّه آدمي فقط:" احترام الآباء، الرّفق بالأخت والزّوجة، صيانة شرف الجار،... لقد جرّت الأفلام التّركيّة الكثير من النّاس إلى كهف أفلاطون وحملتهم على اعتناق أفكار تشوبها الفوضى والابتعاد عن الأصل وجواهر الأشياء، في تلك الأفلام أصبح من الممكن وبأشكال مختلفة أن يدخل الرّجل على زوجة جاره، وأن تتجوّل المرأة بسيارتها ثملة وبموسيقى صاخبة

لينتهي الأمر بها في حادثة طريق تستيقظ منها في مستشفى عموميّ أين يمكن فيه أن تحب دكتورا ويبدأ عشق المخرج مجسّد في شخصيّات وسيمة، ويبدأ الإنسان الغافل عن أمره في رضاعة التّسلية وبيع الأحلام، وفي تلك الأفلام أيضا يمكن للبنت القاصر أن تعيش بعيدا باسم التحرّر والمجتمع المنفتح لتصطدم هي الأخرى بالتباس المصطلحات لينتهي بها الأمر إلى رغبة المخرج "الانتحار أو بيوت ما هو أنتم به أعلم"، في الأفلام التركيّة يمكن أيضا للمرأة أن تصرخ في وجه زوجها لأنّه لم يرض لها خليلا، وتطلّقه لأنّ المسكين فهم أنّ العفّة والشّهامة هبة ربّانية وليستا تخلّفا وسوء طويّة.

أعتقد أنّ المخرج إنسان ناجح اجتماعيّا يظمّ زوجته إليه كما لو كان الرّجل الوحيد لها في هذا العالم، ويحرص بشغف على عمر ابنته ليزوجّها وفقا لطقوس العالمين نبذا للعيب والعار، وفي كلّ درس يقول لكلّ هؤلاء تشبّثوا بالأصل لأنّ الفرع مجرّد مرحلة في أعمار النّاس، عودوا إلى نصوص الأخلاق والدّين لأنّ الحداثة مرض مؤقّت يعقبها ما بعدها فتخرج الإنسانيّة من مرحلة إلى أخرى فتصيب من سايرها بجهالة وتقدّر من فهم الدّرس وانتقد فحواها، ربما كان المخرج أذكى من كلماتي هذه لأنّه عندما يأمر بتصوير كلّ هذا يعي في الوقت نفسه عكسها فهو هنا يمشي مع التيّار العام ويصنع التيّار الذي تحنّ إليه قلوب النّاس، ويبقى المشاهد سجين الصّورة وشارد الخيال لينتهي به الأمر إلى "تجاذب للمشاعر" Ambivalence فلا هو يفهم إلى أين ولا من معه يفهم من كيف ولماذا؛ نعم المخرج التركيّ مخرج ذكي استطاع أن يصنع إنسانا يعجز حتّى عن فهم ذاته من بين ذوات كثيرة "إنسان يصلّي خمس صلوات في اليوم ويعتنق الـ Hip hop style".

إذا كان التّبادل السّلعي في قانون السّوق بين الأمم والشعوب يقتصر على السّلع والمنتجات الماديّة ورؤوس الأموال، فإنّ النّوع الجديد من البضائع يظهر في تبادل الأفكار والمعلومات والمواقف، وهو نوع أخذ مكانة متزايدة الأهمية نظرا لفعاليته في فرض منطق القوّة والسّيادة لقلّة معّينة من النّاس يحدّدها منطق التّسيير، ولا أدلّ من ذلك الاستنزاف الهائل الذي مارسته الشّركات المتعدّدة الجنسيّات في بلدان عديدة باسم "اقتصاد السّوق" والتي استفادت من تسهيلات اقتصاديّة وتنازلات سياسيّة ضخمة؛ كتوزيع عمليّات الإنتاج والتسويق وتحديد أولويّات الاستثمار في الاقتصاد القومي، بالإضافة إلى تأثيرها في مجمل عناصر التّنمية على أصعدتها المختلفة، كالسّعي نحو إلغاء الحدود الجغرافيّة باسم خوصصة الثّقافة وتقليص المسافات السياسيّة من أجل احتكار مركز الإدارة والهيمنة على استرانيجيّة التّخطيط والتّسيير، وفي خضمّ طغيان المصطلحات وفوضى الأحكام توسّع الإيديولوجيات كلّ المسافات الجغرافيّة والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، فتتبنّى الإنسانيّة نمطا من العيش أقرب ما يكون إلى التلقّي والإملاء بدون أدنى تمحيص للأفكار، ولهذا التلقّي المادّي والمعنوي انعكاس كبير على القيم

والمعايير السّائدة والمتوارثة، بحيث تتغيّر نظرة الإنسان إلى الأشياء وتجعله أكثر ميولا للتأثّر بكل جديد معاصر، ممّا يساهم في تقبّل منتجات الإعلام بصورة أكثر تحت طائلة وهم النّخبة وحضارة الذّوق.

ومن جهة أخرى نحن لا ننكر أنّه يمكن وإلى حدّ بعيد خلق التّقارب والتّكامل بين مختلف الأجناس والأعراق لإيجاد أهداف مشتركة للإنسانيّة تفوق المصلحة القطريّة ولا تتناقض معها في الظّاهر، لكّن الثّمن سيكون غاليا جدّا؛ إذ ليس من المعقول أن تقبل السّلطة الرّابعة أيّ مساومة عن أساليب الهيمنة والسّيطرة من أجل القيم والإنسانيّة.

3- العيش في الكهف:

بات ضروريّا أن يرفض إنسان الألفية الثّالثة أن يبقى حبيس ما يقدّم في مساحة المستطيل المتعدّد الألوان، تماما كما يجب عليه أن يعرف أنّ نلك الأسماء التي تمّ تلميعها لأغراض معيّنة ليست نجوما أو شخصيّات ناجحة بالمفهوم العقلاني للكلمتين، وإنما مجرّد وسائل وجدت أصلا للعب أدوار ماديّة شعارها المنفعة؛ يسير العالم إذن نحو ذلك النظام المفترض، أي نحو تلك النهاية المرسومة للمسار الخطّي للتّاريخ البشري نحو الدّيمقراطية اللّيبيرالية، فالدّيمقراطية هي النّظام السياسي الأمثل الذي أصبح ينادي به الجميع أو في أسوء الحالات يخشون معارضتها (Fukuyamas, 2012, p. 35).

نحن نتحدّث عن رأسماليّة متوحشّة تمكّنت من حشد أطياف وصفوف عديدة ومختلفة في إيديولوجيّة واحدة يمليها منطق المال والأعمال، وتناسينا بالمقابل ذوبان آلاف الحشود من الإعلاميّين في قرارات القناة والتي بدورها تخضع لهيمنة الجهة المسيطرة إقليميّا ودوليّا، وهو الأمر الذي يجعلنا نشكّ في أيّ قرار يصدر من الهيئات الإعلاميّة باعتبارها حزبيّة وانتقائيّة: نحن إذن في نفق إعلاميّ مظلم وشخصيّات منفلتة لذواتها تعمل على صياغة المعلومة من منطلق الـ " Buzz" وإرضاء لرغبات مالكة لإدارة القنوات، وهو ما تضمّن تحوّل الإعلام إلى نوع من الاقتصاد الرأسمالي المعولم؛ إذ لا يقدم أيّ رؤية جديدة للتّواجد الإنساني على الأرض بقدر ما يعبّر عن أزمة انسداد أفاق العقلانيّة النّابعة من سياق الحداثة المريضة والمتسرعة في أحكامها وتحليلاتها، وهذا التّسرع أفقدها الدقّة في تصوير ويلات الشّعوب وشقاء أنفسهم حتّى في أدنى متطلّبات العيش؛ إذ ليس بهذه السهولة يختزل العالم ويعلن دخوله في فوضى الأحكام وتمييع الأفكار والفلسفات تحت طائلة هيمنة العلم على المواضيع الاجتماعيّة، وكذا الانقياد وراء سطوة الرّقمنة وطغيان العدد على تحليل المشكلة الإنسانيّة.

حاولت الحداثة أن تترجم فشل العيش في الكهف الغامض بأرق صدام الحضارات، على أنّها جاءت تفسيرا لتحوّلات السياسات العالميّة واستشرافا لعالم ما بعد عقلية الميزان التّجاري، أين يمثّل الإيمان العميق بالإنسان

كإنسان أحد محرّكات التّاريخ، وكذا وضع حدود لجهويّات الإنسان الجديدة/القديمة على حدّ سواء وفق مسار سينكرونيكي يتراوح بين المنحى العرقي والتديّن الطّائفي، كونه يقود إلى حيز الصّراع أو الصّدام عنوة استنادا – زعما منها– إلى مؤشّرات انتقال على طريقة الطّفرة النّوعيّة لمستقبل غير متحدّد المعالم دياكرونيكيّا، وهو مستقبل صدامي بين مشاريع تجاريّة/سياسيّة متعدّدة تحمل شعار عالم اليوم.

نحن نجهل ما يحدث في بيوتنا بنسبة كبيرة إلى درجة جعلتنا نفتح الباب واسعا للحديث عن بيوت منفلتة الأساس، بمعنى آخر أنّ تلك الرّوابط التي تحدّد أيّ اجتماع بشري لم تعد تذكر؛ فالعلاقة بين الأب وابنه تصنعها صفحات التّواصل الاجتماعي، وعلاقة الرّجل بزوجته أصبحت مجرّد وضيفة ثنائيّة تحكمها ضوابط مدنيّة لا يدخل فيها المجتمع كطرف مفارق أو محايث، وعلاقة المواطن برئيسه علاقة ميكيافيليّة الأساس فيها قيم مفرغة من شروطها التاريخية والدّيمقراطيّة، لتغدو جملة هذه العلاقات مجرّد أنساق حضارية موجّهة في شبكة من الرّؤى المختلفة، وهنا لا تقصى فقط الشروط التي تمنح هذه الأنساق فعاليتها، إنما يؤدي ذلك إلى تدمير الأنساق الثقافيّة الأصيلة وتجريدها من مكوّناتها الروحيّة الرّفيعة،كما أنّه لا يتمّ بسب الفروق الجوهرية بين السياقين فقط، بل نتيجة للتعدّديّة الخطيرة للقنوات الإعلاميّة، هذه التّعدّديّة الناتجة عن القيم المادية وروافدها اللّادينيّة –في الغالب– وعدم القدرة على خلق أفكار تنويريّة تتناسب وطبيعة المحتوى التّأسيسي لكلّ دولة من جهة، وفهم الإزدواجيّة القابعة في كلّ الحضارات من جهة أخرى، وهو ما حوّل العجز إلى نموذج أخلاقي متعال يحتضر في طيّات الرّاهن، وأحال الفهم إلى تقاعد نسبي تقوده القنوات التّلفزيزنيّة بوعي أو دون وعي.

أصبح إنسان اليوم شبيها بذلك المسافر بحصانه إلى مكان بعيد، ولمّا بلغه اللّيل إلى قرية رأى أن يستأجر غرفة في فندق يمضي فيها ليله ويرتاح من مغبّة ما عاناه في المسير حتّى الصّباح، لكنّه وبالمقابل رغم توفّر كلّ هذا لم ير مكانا آمنا لحصانه، وفي لحظة معيّنة قّرر أن يسأل صاحب الفندق عن حّل لحصانه في الخارج، فقال له صاحب الفندق اربطه بالقرب من باب الفندق، فقال له لكنّني لم أمتلك حبلا لذلك، فقال صاحب الفندق تظاهر فقط أنّك قمت بربطه فتسجده دائما في مكانه، وفعلا فعل صاحب الحصان وفي الغد وجده في مكانه، وعندما همّ بالانصراف لم يتحرّك الحصان ولم يبد أيّة رغبة في مغادرة المكان، فتعجّب صاحب الحصان لأمره وتصّرفه الذي لم يعتده فيه، الأمر الذي جعله يذهب من جديد إلى صاحب الفندق ليستفسر عمّا حدث لحصانه في غيابه، فقال له صاحب الفندق تظاهر مرّة أخرى بفكّ الحبل منه، وفعلا فعل صاحب الحصان وتظاهر بفكّ الحبل من رجله ثانية فمشى الحصان كالعادة وكأنّ شيئا لم يحدث، فتعجّب السيّد من حصانه المقيّد بلا شيء والمحرّر من القيد بلا شيء.

إنّ هكذا تمثيل يحيلنا إلى نوع من السّذاجة التي تطغى على تفكير غالبية النّاس الذين يعيشون قناعات الشّاشة بدون أيّ نقد ولا تمحيص، وهي قناعات مفرغة من محتواها القيمي والفكري، وربّما كان السّبب نفسه في وصولنا إلى حرب الكلمات وفق المنحى السّفسطائي؛ أين تضحى الحقيقة مجرّد رغبة في زمكان معيّن: "الحقيقة التي يقتنع بها المشاهد لحظة إعلانها بما يدغدغ مشاعره (أناشيد ثوريّة، خطابات سياسيّة مغلّفة بشعارات اجتماعيّة، وعود برّاقة كي لا أقول مزيّفة،...) هي نفسها الحقيقة التي يتمّ رفعها حالما تنتهي صلاحيّتها الاستهلاكيّة بالنّسبة للقوّة المالكة للخطاب الإعلامي"، والفرق بين حالة الحصان أنّ الحقيقة التي امتثل إليها تستمدّ سيطرتها من البعد الحركيّ النّاشئ عن العادة، وحقيقة الحالة التي آل إليها المشاهد تنبع من طغيان اللذّة السّكونيّة النّاشئة عن زحزحته من الواقع اليومي ورميه في حسحة الأحلام، تماما وبالطّريقة نفسها يفرض السّياسيّ –وفي بعض الدّول يأتي العسكريّ قبل السياسيّ– على مدير القناة خيطا أيديولوجيّا يتمّ تسويقه في حصص تقتضيها حجم الهالة، بمعونة منشّطين أقلّ ما يمكن أن يعرف عنهم أنّهم دخلوا بيوت النّاس للعب دور معيّن وتنفيذ رغبة خفيّة من دون أدنى وعي منهم، وموضعهم من القضيّة أشبه بتعريف الرّأسماليّة للإنسان على أنّه مجرّد كائن في مصنع Un élément من أجل مهمّة وزمان يمليهما صاحب الإنتاج؛ هذه الوظائف المتعدّدة لصياغة المعلومة من شأنها أن تنتزع الطّابع الإجرائي للحقيقة وتحويلها إلى ملكيّة، وهو ما سيخلق وبدون أدنى شكّ ضعفا مؤسّساتيّا وتدميرا شخصانيّا للذّات في سبيل تحرير المفاهيم التي تمّ قولبتها وراء السّعي نحو تنميط المعطى المباشر لتحقّق الكينونة.

يكمن الفرق الثّاني في كون أنّ الحصان يعيش في مخيّلته وفيما يبدو له من واقع يعتقد أنّه ينتمي إليه بالفطرة، بينما يعيش المشاهد في قناعات الغير ويذوب في اختياراتهم؛ لنتصوّر مثلا مقدّما تلفزيونيّا لا تمتثل قناعاته لرغبة مخرج الحصّة وهذا الأخير وجهته الفكريّة لا تتماشى مع مدير القناة، ومدير القناة يفرّ من رغبة النّظام العام للحركة السياسيّة: في الحالة الأولى سيتم استبدال المقدّم وفي الحالة الثّانية يتمّ منع عرض الحصّة وفي الحالة الثّالثة سيتمّ طرد المدير أو على الأرجح إنهاء مهامه، وفي الحالة الأخيرة سينتهي الأمر إلى غلق القناة، وتحت طائلة كلّ هذه الحالات يتمّ ربط المشاهد كيفيّا وتحريره صوريّا وهو نوع من التّحرّر الذي يفرض في طيّاته إكراها على صورة الحريّة التي نادى بها "سارتر" من أجل شرعنة المسؤوليّة من جهة، ولأنّ الاستبعاد هنا مشروط بقوّة الصّورة وحجم التّوجيه السياسي من جهة أخرى، ولا أعرف هنا إن كانت لغة المقال تسمح لي بتجاوز الثنائيّة الضدّية تحرير/استعباد واستعمالها كمترادفات، باعتبار أنّ التّناسب يكون طرديّا بين مقدار التحرّر ودرجة الاستعباد الذين يتحكّم فيهما عدد الجرعات التي تستعملها السّلطة المالكة للخطاب وفق المبدأ القائل "إذا بدا الشّعب بالاستيقاظ فإنّ على الحكومات مضاعفة الجرعة"، وهذه الجرعات التي يتمّ إضافتها في كلّ مرّة تكون المسؤولة عن

تنميط الحياة اليوميّة لكلّ جيل وفق النّظرة التي تتلاءم مع خصوصيّة كلّ مؤسّسة سياسيّة:"كل جيل يبحث عن إعادة تعريف الخطوط العريضة التي تعرف بها السّياسة والمجتمع المدني والسّوق: تغافلت الحكومات عن هذا التّعريف في جيلنا، لأنّ الوظائف التي كانت تعتدّ بسياسة ما تم تحويلها وإعطاءها للمجتمع المدني والسّوق تحت غطاء الخوصصة والفصل التام، بنفس الطريقة تم تغيير المركز وتحريف محلية المؤسّسة وتقسيمها ما يجعل استحالة التّعريف، ووضع الخطوط الفاصلة بين السياسة والنّظام الاجتماعي"(Fukuyama, 2000, p. 305) ، بهذا المعنى سيتحوّل الإعلام إلى شركة للدّعاية الحداثيّة بعدما كان مجرّد صوت مالي، كون أنّ الحداثة تنفر من الدقّة والتّعريفات الجامعة المانعة والتّعريفات بالإشارة لتسهل عليها عمليّة اللّعب على آمال وطموحات النّاس في عيش إنسانيّ، فمؤسّسات الإعلام العملاقة قد صارت مجّهزة على أفضل وجه لتسير أفقيّا نحو النّهوض بأعباء رسالة العولمة والحداثة وما بعد الحداثة على حدّ سواء، ونقصد بالدّرجة الأولى من ثقافة الانسلاخ بمعونة الورقة الخضراء (الدّولار) إلى الانقياد وراء سحر الكلمة (الخطابات الرنّانة) إلى هيمنة الصّورة ورضاعة التّسلية (نشر السّخافة والعبث بالقيم).

غير بعيد من مأساة الفرق بين أوهام الحصان في التّحرّر من القيد المزعوم وضياع المشاهد وذوبانه في قناعات خفيّة ومستترة، يشترك الإثنين في الحركة الموجّهة؛ يتّجه الحصان برغبة من مالكه إلى الوجهة التي يختارها، فهو بذلك يمتلك حركته لكنّه يفتقر إلى وجهته والغاية التي من أجلها يتحرّك، تماما كما يقضي المشاهد وقته اختيارا أمام قنوات بائسة مع جهله التّام بالرّسائل التي تتراكم على ذهنه دون أيّ نظرة استشرافيّة أو تمحيص لكلّ ما يرضعه من وهم وزيف، فعلى سبيل المثال لا الحصر تلعب الكثير من القنوات على وتر العرق ومنطق الفصل من أجل تمرير سياسات فاشية تخدم أجندات استعماريّة بصورها الحديثة (شركات متعدّدة الجنسيّات، قواعد عسكريّة) الغرض منها شرعنة العنف وعقلنة الحرب، وهو ما حدث في العراق باسم "مكافحة التسلّح" وفي ليبيا باسم "القضاء على الأنظمة الدّيكتاتوريّة"، وكذا امتياز العنف المشروع في الأنظمة الرّجعيّة وما يمارس في الوطن الواحد وبين أبناء الإقليم الواحد، وهي أنظمة تبقى بدورها وفيّة للإرث الاستعماري وما ينتج عن ذلك من خوف ومناصرة لحكم الطّغاة.

الأمر إذن أشبه بصورة عجوز شمطاء تمّ عرضها للمشاهد بعد عمليّات تجميل كثيرة، صورة تحمل الشّخص نفسه لكن بمقاربات متعدّدة أثارت شكوكا عدّة بعدد متتّبعيها: هل يتعلّق الأمر بالشّبه؟ أم بصورة تضليليّة؟ أم بغاية قصوى لم نعرف بعد مداها؟ والمهمّ في كلّ هذه الأسئلة أنّ الإجابة يمكن اختزالها بالقول أنّ هناك حقيقة غائبة في واقع النّاس وصورة مهيمنة على تفكيرهم.

4- الخروج من الكهف:

كان الميل للتّفكير بوجودين يتردّد دائما عبر التّاريخ الإنساني؛ فالثّنائية الفكريّة التي سادت الاعتقاد البشري من الحضارات الشّرقية القديمة (الجسم والنّفس) إلى ديكارت (الجوهر المفكّر والجوهر الممتد)، تحوّل عند النّاس إلى ما يغريهم بتقسيم بعضهم إلى "نحن" و"هم" دون أن يتحدّد أيّ منهما، إنّ الشعوب والدول تحاول أن تجد الإجابة عن أكثر الأسئلة أهمية، من أنا من الكون الذي يمشي بسرعة هائلة؟ ومن نحن من هذه الشّخصانيّة المشبعة بثقافة الانفلات للتّشخيص؟

ربّما يعود الاضطراب في كلّ المجالات التي يصطدم بها الإنسان المعاصر إلى تشويه صورة ما يحدث في العالم " ظهور الأنظمة الواهنة وانبثاق سياسة الجهة أدّى إلى انهيار السّلطة الحكوميّة وانعدام الثّقة بين جميع أطياف المجتمع، غياب الثّقة هذا ساهم في رسم صورة ثانية لعالم غارق في فوضى الأوهام والأحكام الافتراضيّة، تتمخّض الإجابة من رحم الطّريقة التقليديّة التي استعملتها أنظمة الغوغاء في الماضي، وذلك بتسيس الحالة الاجتماعيّة عندما تغيب مكانيزمات الوقوف على الحلول الاقتصاديّة والثّقافيّة، وذلك مثل الإشارة إلى الأشياء التي لها أكبر معنى بالنّسبة إلى الذّات؛ كفهم هذه الأخيرة لنفسها في شكل النّسب العرقي من منطلق أنّ كلّ صنف ينضاف إلى نوعه وكلّ شكل يتوق عشقا إلى شكله، الدّين، اللّسان (اللّهجة واللّغة)، التاريخ، القيم، العادات والتّقاليد، المؤسسات الاجتماعيّة، إنهم يتماثلون مع تكتّلات تجمعها صفة معيّنة تأخذ أبعادا وامتدادات مختلفة يمكن تسميتها فيما بعد بلقاء الحضارات بعد تلميع الصّورة وتمييع الجوهر، أين يصعب على الـ" نحن" معرفة "الأنانات" إلّا في تخراجها في أشكال صداميّة وحدود دمويّة.

أحد التحديات الرئيسية التي واجهت عالم ما بعد الحرب الباردة، هو تزعزع مستقبل العلاقات بين الدّول والبشر ومع سقوط الشيوعية أصبح من الضّروري الإجابة عن سؤال: هل الخروج من كهف الشّاشة يكفي لاستقبال الأنوار التي تعد بها دساتير الحكّام ومؤسّسات التّسيير؟

نخن نعلم أنّ لدى الحضارة الغربية إمكانيات علمية وتكنولوجية تمكّنها من النّهوض بأعباء الحلم الجديد، وهذا أساس ما أسماه ألفين توفلر أزمة الحضارة الغربية، حيث قسّم المجتمع الأمريكي إلى ثلاثة موجات: حضارة الموجة الزراعيّة، وحضارة الموجة الصّناعيّة والموجة الثّالثة ما بعد الصّناعيّة، حيث يقرّ أنّ الحضارة المعلوماتيّة (ما بعد الصّناعيّة) هي التي ستنهض بمستقبل أمريكا، وكما ساد الاعتقاد بأنّ الاتّصالات ثمرة التطوّر الاقتصادي فإنّه حاول تقديم رؤية مغايرة للعصور الحضارية انطلاقا من الموجات الثلاث (ألفين، 1990، صفحة 378).

لكن ماذا لو سلب منّا الإعلام أعزّ ما نملك؟

تكون الممارسات اليوميّة هي الإجابة:

- تفكّك الدّول واتّساع نطاق الصّراعات القبليّة والعرقيّة والدينيّة،
- ظهور المافيا الإجراميّة الدوليّة وزيادة أعداد اللّاجئين بأعداد كبيرة.
- انتشار الأسلحة النوويّة وغيرها من أسلحة الدّمار الشامل وتفشّي الإرهاب.
- تفشّي العنصريّة والانحطاط الأخلاقي.

وكأنّ العيش في الكهف أرحم من داخله بعد فشل محرّك التّاريخ في رسم معالم حياة أنسانيّة في ذاتها؛ أي بعيدا عن كلّ المساعي الأيديولوجيّة والبراغماتيّة التي تضفيها قنوات الإعلام الخاصّة والوطنيّة، والتي تتضمّن أساسا مختلفا تماما عن ذلك الأساس الذي كان حتّى الآن أساسا للتنظيم الشعبي إلى درجة أصبح فيها الحديث عن تطوّر الرّوح بعيدا عن قوالب مخبريّة أو إعلاميّة من قبيل المستحيل.

سنتحدّث لاحقا عن مراحل رئيسية في عالم يريد أن يكون المرجع والرّمز في كلّ خرجاته الإعلاميّة، لذا بات من الضّروري تأليه بعض الشّخصيات لقيادة المشروع التّضليلي لثقافة الكهف باسم التّنوير ومرافقة تطلّعات الذّات، ويحدّد بالنّسبة إلى كلّ مرحلة نوع الثّقافة الذي أبدعه الرّوح المغلق في صيرورته حول ذاته ونحو ذاته، وتاريخ العالم هو تنظيم الإرادة الطّبيعية الغير منضبطة لربطها بطاعة مبادئ كليّة لثقافات انتقائيّة يتمّ قولبتها في أغنية الخلاص أو نشوة الانتصار على الماضي، وعليه فإنّ أكمل حالات الوعي التي يمكن أن يبلغها الإنسان هي حالة المعرفة من خلال استشعار ذاته باعتماد الحسّ النّقدي لكلّ ما يمتّ بصلة لواقعه وتطلّعاته، ونستطيع أن نجزم هنا أنّ الوعي الكلّي بشروط الواقع هو تمثّل الرّوح في محاولة تحقيق أو تحصيل ذاته ككيان كلّاني لا يقبل المساومة في أيّ لحظة من صيرورة حياته، وهكذا فقد حذا الإعلام حذو الرّأسماليّة المتوحشّة عندما عرّف مشروعه بأنّه محاولة لإحلال ثقافة التكيّف مع شروط ومتطلّبات عصر جديد، وفيه بالكاد يتجلّى الرّوح أو الوعي الإنساني الجماعي في سبيل معرفة طبيعة الذّوق العام الذي يوحّد جميع الأذواق والرّؤى، لكنّ الحقيقة الباطنة تحمل شكلا آخر لهذا المشروع وهو قتل الاختيار وروح المبادرة وجعل الجميع ينقادون وراء المسار الموجّه لشركات الإعلام الضّخمة، تماما وبنفس الطّريقة التي عبر بها هيجل F. Hegel عندما رأى أنّ التقدّم في التّاريخ لا ينشأ عن تقدّم مطرد للعقل، وإنّما عن التّفاعل الأعمى للعواطف التي أدّت بالإنسان إلى الصّراعات والثّورات والحروب، وهو الأمر الذي أطلق عليه هيجل اسم "دهاء العقل"، لذا فإنّ ما يخاطبه الإعلام من الوهلة الأولى لا يعدو أن يكون سوى خطاب للعاطفة بإثارة مقدّسات الذّات (الأصل، الشّرف، التديّن، الانتظام في مؤسّسات دينيّة،...) بغرض دغدغة مشاعر النّاس وشحذ عقولهم نحو العبث والانقياد وراء الصّورة وسحر الكلمة، وعليه فمسار الفكر هو سلسلة لا

متناهية من انبثاق الصّور أقرب ما يكون إلى انهيار ثلجيّ بدايته مشهد مثير ونهايته كارثة وخيمة؛ تتصادم فيها الأنساق الفكرية والأنظمة السياسيّة على وقع التّناقضات التي أراد لها الإعلام أن تتخذ مسارا جدليّا، ولعلّ القول أن عولمة الإعلام في عصر تقنية المعلومات هي نسخة جديدة لأسلوب صراع الثّقافات الذي استخدمته الولايات المتحدة الأمريكية في الحربين العالميتين الأولى والثّانية، وتستخدمه الآن من خلال سيطرتها على ما يقارب 65 % من التدفّقات الإعلاميّة الحالية، وعلى حوالي 80% من إنتاج الصّور السمعيّة البصريّة المتداولة في العالم بعقلية السوق التجاري ومحاولة غرس هذه القيم البسيطة بواسطة الصّوت والصّورة.

يؤكّد الواقع في خطّ ما يحدث اليوم في الجامعات والأدوار الدّينيّة وتأويل البرامج الوزاريّة في طورها العالي والتّربوي أنّ هناك يدا ترتجف من عدم قدرتها على فهم النّشاط التّذاوتي لكلّ من الأسرة (باعتبارها الاجتماع البدء) والمجتمع المدني (كونه تجسيد لمختلف الوظائف الاجتماعيّة) وصولا إلى الدّولة (باعتبارها ضرورة عقلانيّة) وكذا رسم مشروع تتحالف فيه الرّغبة مع العقل على المستوى الشّخصي في سبيل تحقيق الحريّة في صورة مؤسّسات سياسيّة واجتماعيّة ملموسة تتجسّد في مجتمعات مدنيّة، كما أنّه كثيرا ما يهيمن الاقتصاد وغريزة الاعتراف والعمليّة الإنسانيّة التاريخيّة في تلك المجتمعات، ولا شكّ أنّها محرّكات تدفعها إلى التّنامي التّدريجي في ظلّ العلم الطبيعي الحديث والصّراع من أجل الاعتراف على حدّ سواء، ينبثق الأول من الجزء الرّاغب في النّفس الذي تحرّر في الأزمنة الحديثة المبكّرة واتّجه نحو التراكم اللّامحدود للثّروة، وهذا التّراكم اللّامحدود صار ممكنا بفضل التّحالف الذي أقيم بين الغريزة وعقلنة القوّة، والثّاني من تأثير الدّاروينيّة على جميع مناحي التّواجد الإنساني في جدليّة الأنا والآخر وهو متأصّل في الجزء التيموسي من النّفس، وأخذ الجزء التيموسي من النّفس والصّراع من أجل الاعتراف كمحرّك رئيسي للتّاريخ" (Foukoyama, 1992, p. 232) ، ومن هنا نجد أنّ الاقتصاد والحريّة يؤدّيان إلى انتشار الدّيمقراطيّة كالمدّ الذي يجتاح العالم المعاصر، وهذا ما أسماه هنتنجتون الموجة الثالثة للدّيمقراطيّة التي اجتاحت العالم في نهاية القرن العشرين (صامويل، 1993، صفحة 61).

يبدو جليّا أنّ المحرّك ليس في نهاية المطاف سوى الهيمنة في قالب نفعي، فإذا كان الإعلام كلّه يتحرّك ضمنيّا بدافع التّرفيه وإيصال المعلومة من أجل تحرير الشّعوب من بوتقة الانتماء الفارغ، فإن الانتصار الحقيقي للنّظام السّياسي الشّامل ينتهي إلى تكريس الذّهنية الفرعونيّة في تقسم الـ "نّحن" إلى شيع متصارعة على جبهات مختلفة (جبهة الانتماء العرقي، جبهة الانتماء الجغرافي، جبهة الطّائفيّة،...) وفي الأصل كلّها عبارة عن عقد يتمّ الاستثمار فيها حسب الطّلب الإيديولوجي؛ حيث يتصاعد نزاع يحدث بإذكاء نعرات تاريخيّة وثقافيّة موجّهة وموجّهة (بفتح حرف الجيم وكسره) على حدّ سواء، وكذا إذكاء خطاب الثّقافة المحدّدة لاخضرار السّيطرة الإعلاميّة كوجه

من وجوه السياسة المهيمنة في مقابل توجّهات غربيّة- مسيحيّة، إذ أنّ هذه التوجّهات الثقافيّة القابلة للتّبادل فيما بينها على نحو ما يبدو في ظاهر الأمور، تعبّر عن توجّهات مختلفة تتميّز بديناميّة صداميّة تصاعديّة لنزاع قائم على اختلافات قيميّة وجدانيّة.

4- نحو بيت لا يسع الجميع:

شهدت العقود الأخيرة من القرن الماضي تصعيدا خطيرا للخطاب الإعلامي ضد الشّعوب باسم التّخوين والتّكفير تمثّلت في المواجهة اليقظة التي تبنّتها تلك الشّعوب ضدّ الحركات المأساويّة لمؤسّسات النّظام باسم الدّولة، إذ يحاول الإعلام في كلّ مرّة أن يصوّر علاقة الواحد بالمجموع لدى الرّأي العام بأنّها عبارة عن أطماع وموالات للإرث الاستعماري في لوحة تعصّبيّة وبربرية، وهكذا رسم الإعلام بشتّى أنواعه صورة الإنسان الرّافض للعبوديّة على أنّه عميل ورجعيّ، يريد الاستثمار في الماضي السّحيق مستعيرا صورة الحركات الأصوليّة الغربيّة المرتبطة بمرحلة الصّراع بين تحرير الأرض وانتزاع السّلطة، ومع فشل هذا التّشويه للواقع ظهرت حركات شعبيّة مناوئة لكلّ ما يتداوله الإعلام داخل بنيته وتكوينه كتحدّ لحضارة الوهم الممثّلة في التّلفزيون والفضاء الأزرق، إذ أدّى نمو الشّارع داخل المنظومة الاجتماعية إلى ظهور رغبة في التّغيير والتّوق إلى مجتمع تسوده الدّيمقراطيّة وقيم العدالة، ولكن هل سيساهم اتّحاد العقل مع الرّغبة مرّة أخرى في خلق رؤية كونية للعالم تتوزّع فيها الثّقافات باعتبارها تشكّلا آخر للحضارة وتحدّ من مادية الحياة في القرن الواحد والعشرين، أم أنها سوف تتشكّل حسب قيم ومصالح أصحاب قنوات الإعلام باعتبارها أدوات عسكريّة بولاءات سياسيّة مغلقة؟

لا شكّ أنّه بإمكان الإعلام أن يلوّن الأشياء ويقوم بفبركتها على الشّاكلة التي تتواءم مع غايات الإخراج، كما أنّ أشدّ المستبدّين يصرح بانتهاج الدّيمقراطيّة أمام الرّأي العام، فاليسار واليمين قرروا جميعا التوجّه للحلّ الديمقراطي، فلم نعد تسمع بأحزاب ثوريّة أو على الأقلّ عسكريّة مثلا أو أحزاب تحمل أيديولوجيا معارضة للدّيمقراطيّة ما عدا بعض التيارات الإسلامية السلفيّة أو السلفيّة الجهاديّة التي تقوم على دور الإمام في حفظ الشّرع والذود عنه، ونحن نقول عن هذه الأخيرة على أنّ ميكانيزمات التّسيير فيها تبقى غامضة لكنّها وعلى الأقلّ تبقى أكثر شجاعة وجرأة في إعلان دستورها بطريقة شفّافة وواضحة مقارنة بأحزاب ديمقراطيّة المظهر وديكتاتوريّة الجوهر، وقد رأينا في فلسطين -حركة حمس- ومصر -حزب النّور- تشكّل أحزاب سياسيّة سلفيّة تنخرط في الممارسة الدّيمقراطية بأهداف معلنة واستراتيجيّة واضحة تأباها القوى الغربيّة، لذا شهدت مقاومة حادّة من اللّيبراليّة بمفهومها الغربي الحداثي، فالمجتمعات الإسلامية في محاولتها الحفاظ على بعض مقوماتها تقع في صدام مباشر

مع كلّ ما هو تغريبي استهدافي وضدّ الأدلجة وتكريس فكر الأنساق المغلق باسم مركزيّة العقل الغربي، والذي يحمل في ثناياه ظاهرة الاستطان العشوائي.

إنّ المقاومة الثقافية التي أنتجها الإعلام بهذا تغيّر من استراتيجيتها، فبدل التّقوقع والاستناد إلى الواقع المعيش بنظرة تحليليّة ومنهجيّة، نجدها تميل إلى استراتيجيّة صنع المقاومة الثقافيّة عبر اصطناع وقائع موازية أقرب ما تكون إلى إحلال نظام التّواطؤ في المكان، ففي عالمنا المعاصر نعيش كثيرا من مشكلات الصّراع بين الثّقافات التي أنتجت مشاكل جمّة نحن في غنى عنها، تماما يمكن تسميتها بـ "وقائع المخبر" لأنّها في الحقيقة مفتعلة ومفبركة بطريقة تقنيّة؛ إذ نجد أناسا يستخدمون ميزانية الدّولة لحماية أقاربهم أو إحداث شرخ في علاقة النّاس ببعضهم البعض، وهنا يقتضي بنا الأمر إلى أن نتّجه إلى ماهية الخطاب وأن نتساءل عن طبيعة الفعل أو المقول عن الفعل، وأوّل ما نلاحظه فيه أنه مثل سائر الأشياء، إلا أنّه يتميّز عنها جميعا لأنّه يفصح عمّا هو أكثر من الشّيء ذاته باعتباره يمكّننا من ملاحظته كنشاط، إنّه رمز لأن شيئية العمل المقول تبدو كأنّها البنية التحتيّة التي يشيّد فوقها العنصر الحقيقي فيه، سنكون في النّهاية أمام هويّة تصنعها القنوات التّلفزيونيّة وقيم تمليها مصالح سياسيّة بحتة، وهنا يكون الكلام معبّرا عن الفاعليّة الحيّة والممارسة العمليّة لمسار الفهم في سياق جدليّة القول/الصّورة من أجل ممارسة الإغفال عن حيثيّات الواقع اليومي، وإذا كانت هيمنة الصّورة وثيقة الصّلة بعمليّة إنتاج المشهد الإجتماعي فإنّ من شأن الفاعليّة النّقديّة أن تجعل المشهد الإعلامي ينتقل من مرحلة العرض إلى مستويات الكشف عن خبايا ونوايا المعروضات، خاصّة عندما بيّن العجز التّفاعلي أنّ الذّهنيّة الأداتيّة لا تصلح أن تكون بديلا للنّقد القائم على الملاحظة، ومثال ذلك الرّؤية الوضعيّة التي جعلت من الإنسان مجرّد كتلة تتحقّق على ضوء إشعارات محسوسة يلعب فيها الإعلام دور الوسيلة، ونحن نميّز بين هذه الأدوار باعتبارها مصالح تقنيّة وأدوار استهدافيّة، لكن ومع اختلافها إلّا أنّها تلتقي أخيرا في المصلحة، وأصبح وفق هذا المنظور الإعلام كشرط وحيد لكلّ معرفة يمكن أن يؤسّس لحياة هادفة حسب المنظور اللّيبرالي، وهو الأمر الذي جعل المعرفة الإنسانيّة في ارتباطها بحركة الصّورة في حدّ ذاتها تصطدم بخطاب علمويّ، يقول هابرماس:" جاءت العلمويّة لتدعّم تصوّرا عامّا يضفي نوعا من المشروعيّة على آليات التحكّم التّكنوقراطي" (هابرماس، 1995، صفحة 42)

نحن إذن أمام تقويض للمفاهيم على مستوى البنيّات وتجاوز لتناقضات الحداثة التي تجد لنفسها مكانا في الهوّة الفاصلة بين التّراكم المعرفي الثّقافي والممارسات اليوميّة، نحن إذن أمام مشروع بعث العقل من جديد ضدّ هيمنة الصّورة المتحرّكة نحو غايات ثابتة، لكن بالرّغم من انهيار تعبيرات الحداثة إلّا أنّ مشروعها يتعلّق بنمط الحقيقة التي تطالب بها الممارسة بصفة عامّة، وكذا السّياسة باعتبارها تنتمي إلى مجال تدبير المنزل من زاوية أنّها

تتضافر فيها شروط عديدة ومختلفة والنّشاط بصفة خاصّة(Ricoeur, 1985, p. 311) ، من هنا يعبّر المجتمع عن انطلاقة رئيسيّة أرست مفهوما جديدا يقوم على أسس اجتماعيّة ترفض تماما الفصل بين ما هو اجتماعي وسياسي، أين تتحوّل فيه النّظرة الإعلاميّة إلى تصرّفات نقديّة واجتماعيّة تأخذ على عاتقها استبعاد الزّيف واستغباء النّاس، ثمّ إنّ دمج الفكر النّقدي بالمجتمع يعتبر انبثاقا وتجسيدا لأفكار صوريّة ومجرّدة في الواقع.

ويصبح الغرض الرّئيسي من البحث في المشهد الإعلامي من منظور النّقد هو تبيان ضعف النّظرة الوضعيّة للحقائق وقصور موقفها من حركة الذّات وتطلّعاتها، خاصّة وأنّ المشهد الإعلامي كان يهدف إلى ربط المعرفة الاجتماعية بالإيديولوجيّة السياسيّة، بل أكثر من هذا أصبح بالإمكان أن نتحدّث عن عقلانيّة لاعقلانيّة تتضمّن قرارات سياسيّة، ويشير دافيدسون Donald Davidson إلى مثل هذا المنحى الفكريّ بقوله:" وحده المخلوق العقلاني من يستطيع أن يكون لا عقلانيّا" (Davidson, 1991, p. 01)، معنى هذا أنّ العقلانيّة قضيّة توظيف ومجال استعمال يتحدّد على ضوء طبيعة البحث والغاية منه، وقد جمعت هذه "العقلنة" كلّ هذه الأشكال المعرفيّة في نظريّة الحس المشترك La théorie de l’esprit sceau لتعبّر عن الحياة بطريقة مؤسّساتيّة هشّة على ضوء مختلف ممارساتها الاجتماعية والأخلاقية والسّياسيّة.

لا تكتفي العقلانيّة التّواصليّة بهذا المعنى بالتّفكير وإنّما تريد أن تخضع كلّ ما يدخل في إطار التّفكير ذاته إلى التّجربة، فهي تريد تعاقب البعدي والقبلي لتفسير حركيّة النّشاط التّداوتي الذي يفترض على سبيل الإلزام عدم الفصل بين ما هو نظري وتطبيقي، ومن ثمّة لم يعد التّواصل معطى في الواقع بقدر ما أصبح بنيانا عقليّا ينتمي إلى الشّاشة، إنّه بنيان من العلاقات التي تربط الظّواهر السياسيّة فيما بينها، بحيث تنطلق من النّظرية إلى التّطبيق وهو ما يوحي باختلاف واضح بين عقلانية الواقع وعقلنة المشهد، لأنّها ذات طبيعة استكشافيّة/ مستقبليّة تحاول استثمار الواقع في شتى جوانبه، وكذا إحالته إلى برنامج تنفيذي يحلّ المعلومة في نظريّة عامّة للرّوح والعقل ويكون المشهد الإعلامي تجسيدا لهما، وتتضمّن الكينونات النّظريّة مجموعة من المصطلحات التي نستخدمها ونحن نتحدّث عن أشياء ووقائع العالم؛ معنى هذا أنّنا نعرف هذه الأشياء انطلاقا من صفاتها وعن طريق انسجام الوحدة والتصوّر وانطباع تلك والوحدة على الفكر، كما لا يمكننا استبعاد الطّبيعة المثاليّة في مثل هذه الحركيّة لأنّها نشاط لا يمكن فصله عن الذّات في أبعادها المختلفة، ويتجلّى في منهجيّة العلم (الفاعلية والنّشاط)، وإلّا لأصبح من الصّعب تفسير وتبرير الدّور المحوري لمختلف البيانات وكذا تحكّم الخبرة في التّفسيرات النّفسيّة والاجتماعيّة.

من الضّروري بمكان أن نقرّ بأنّ العقلانيّة الأداتيّة تستطيع في حالات كثيرة أن تلبّي الجوانب الماديّة للمتطلّبات الاجتماعيّة، لكنّها قاصرة في الوقت نفسه أن تفهم أبعاد الذّات الإنسانيّة في جوانبها المختلفة، حيث يظلّ

جديرا بالذّكر القول أنّ ما يجب فهمه كأولويّة هو التّفاعل بين الذّوات، كما أنّ البحث عن الأسس يهدف إلى تبيان أسبقيّة وأفضليّة الاختيار العقلاني في كافّة أشكال اللاّعقلانيّة، ومثل هذه الأضداد كثيرا ما تتداخل لتعبّر عن وظيفة تكميليّة تؤسّسها اللّغة التي تستعملها الأنظمة الفاشلة في إثارة النّعرات بدل إثراء قيم التعدّد، ونحن عندما نطالب بإعادة الاعتبار للعقل النّقدي من زاوية أنّه جوهر للحسّ المشترك الذي تمّ استبعاده وسحب الثّقة منه، إنّما نريد فتح أخلاق جديدة للنّقاش تكون بمنزلة المدّ والجزر في علاقة الذّات بواقعها بعيدا عن ذهنية المركز؛ إذ لابدّ من تعميق مفهوم المعنى الوجودي وربطه بالأطر التّحليليّة للنّفس من زاوية اجتماعيّة، ويكون ذلك بمثابة إجراء نقديّ يهدف إلى تحرير الذّات، ومعبّرا في الآن نفسه عن الحالة المزرية للذّات في حالة عدم تمكّنها من مخاطبة نفسها، والحالة المثاليّة للتّواصل في حالة تأمّل الذّات لذاتها وفق شروط الوعي بحالاتها هو ما يضمن تخارج الذّات في كلّ تواصل وتجاوز الشّروط الموضوعيّة التي يمكنها في حالة سهو تقييد نشاطها، يقول هابرماس:" إنّ الأوهام الجماعيّة للرّغبة التي تعوّض التّنازلات المفروضة من طرف الحضارة تؤدّي بالتّواصل إلى مستوى من الوجود المنعزل، إنّ هذه الأوهام تتوسّع بفضل تأويلات العالم وتستعمل بوصفها عقلنة للسّيطرة" (Habarmas, 1976, p. 310)، وكي لا تبقى الذّات حبيسة النموذج الإيديولوجي أين يحدث نوع من التّنميط والشّكلنة Formalisation لظاهرة الوجود Phénomène d'être، يجب أن تكون مهمّة الإيديولوجيا منبثقة من عالم مركّب ومحدّد المعالم كانبثاق اللاّشيء في أحضان الوجود، ونحن نستشعر هذا الحضور من خلال أنماط السّلوك المختلفة كالاستفهام واللامبالاة والميل إلى الاستهلاك العشوائي للصّور، وكأنّنا أمام ذات تعيش ويلات الوجود الملقى هناك L'être jeté-là أو ما يسمّى بلغة الوجوديّين بـ "السّقوط" Décheance.

هنا يظهر التّفسير الوجودي للواقع الإنساني باعتباره ظاهرة لم تكتمل بعد أو ماهية لا تستطيع اللّحاق بنفسها، وتظهر المعايير الاجتماعية باعتبارها قوة ضاغطة تمارس نوعا من القهر والإجبار، لذا لابدّ من عقلنة الشّاشة كي تقوم على نمط العلاقات التعاقديّة التي تؤدي إلى مأسسة أبجديات الفهم والحوار والتّحليل، ويكون فيها الواقع المعاش بمثابة الخلفيّة الكامنة وراء كلّ مشارك في عمليّة التّقديم والمشاهدة على حدّ سواء، وتعمد إلى الجمع بين الإندماج الإجتماعي والواقع الذي يعيشه النّاس بحثاً عن نظريّة كوكبيّة تتجاوز الرّغبات الخفيّة.

خاتمة:

لا يتمّ الخلل بسب الفروق الجوهريّة المتباينة على مستوى التّعاريف المتعلّقة بالإعلام، بل نتيجة للازدواجية الخطيرة لنشاط المصطلح والتي كثيرا ما تجمع بين متناقضين، هذه الازدواجية الناتجة عن اختلاط القيم الروحية الرفيعة بنظيراتها المادية وروافدها الغربية وعدم القدرة على فك الاشتباك بينهما، هو ما حوّل القيم الأولى للإنسانيّة

إلى أنموذج للدّراسة ومأسسة إشكاليّة لكلّ ما يحيط بها من ظروف، وعليه فإنّ حقيقة الأشياء وحقيقة الآنية والواقع ستكون بمثابة البيان النظري الأيديولوجي والسياسي لأنظمة المجتمعات الرّقميّة في عصرنا، إذ ينطوي هذا البيان على الخلفية النظرية الفلسفية التي تستند إليها إيديولوجية العولمة وسياستها الليبرالية في الاقتصاد، وفي ممارسة السّلطة والحكم وفي الحياة الاجتماعيّة والفكريّة والثقافيّة عامّة.

لم تكن النّظرة الإعلاميّة مقتصرة فقط على الأبعاد السياسيّة والاقتصادية، بل إنّها كانت تشمل العمليّة السياسيّة وأنماط الحياة في التجمّعات الإنسانيّة بالأساس، إنّ العالم ما قبل الحديث كان يواجه إشكالًا وجدانيّا خطيرا يتعلّق بالمأزق اللّاهوتي السياسي وكيفيّة إدارة المجتمع بغرض تحقيق سياسات رقاء وتقدّم، إذن تتعلّق المشكلة السياسيّة الحديثة بالأسس والمبادئ وكيفيّة مواءمتها مع حياة النّاس في المجتمع: تحقيق السّعادة، التقدّم، المساواة،... كلّ ذلك ليس سوى المقومات الأساسيّة التي تنظّم المخيال السياسي للغرب الحديث، غرب ما بعد الكنيسة والسياسة الدّينيّة، يمكننا أن نقول إنّ كل ذلك كان يتجه في بلورة القوميّة الحديثة الغربيّة، ليس فقط سياسيًّا، ولكن إنسانيًّا ولغويّا أيضا؛ أين تقوم بدور مؤثّر في قدرتها المستمدّة من الخبرة في وصف النّظام الاجتماعي تماما كوصفها لنظام العالم بصورة عامّة، حيث أصبحت للكلمة قيمة وموضوعيّة في المجال الإعلامي إشارة لسعيها الدّؤوب والدّائم ليس فقط لفهم الرّاهن بل للمشاركة صناعته وفي تغيره وإحداث قطيعة معه.

إذن هي ملكة النّقد التي تؤمن بقدرات الذّات الفاعلة في المجتمع؛ تؤمن بقدرات الذّات على فهم نشاطاتها المختلفة والارتماء في حضن هذا العالم الذي يمضي بسرعة هائلة، والخوض في غمار أحداثه بكلّ استقلاليّة عن الأطر الرّجعيّة الماضويّة والأنساق الاستبداديّة المغلقة سياسة كانت أم إعلاما، لكن هذه النّزعة النّقديّة كثيرا ما تكون مصدرا لمزاعم متصارعة تحكمها أيديولوجيّات تتمتّع بنفوذ سياسيّ واقتصاديّ رهيبين، وهنا تتمثّل من جديد حدود الإعلام في إمكانيّة تكريس التعاون من خلال محاولة إيجاد خطوط التّماس بين الأطراف المتنازعة، وكذا التّخفيف من بؤر التوتّر في الحياة الاجتماعية، وهو الأمر الذي ظهر فيما بعد باسم الدّيمقراطيّة اللّيبراليّة Démocratie libérale التي تجمع بين قيم الإنسان وتطلّعاته للحريّة، يمكننا القول أنّ هناك مستويين من الحضور الأيديولوجي في الخطاب الإعلامي:

1. مستوى ظاهري يبرز من خلال الاعتقاد بأنّ لدى مشروعه المعرفي القدرة على التّمييز بين نمطين من أنماط التّفكير: تفكير إيديولوجي يزعم أنّه معرفة بالظّروف المحيطة بالواقع، وتفكير علمي يزعم هو الآخر بأنّه على معرفة بتلك الظّروف، ويعتقد أنّ آليات العقلانيّة ذات النّزعة النّقديّة لديها القدرة على التّمييز بين الواقعي والمأمول.

2. في المقابل نجد أن هناك مستوى إيديولوجيا آخرا قارّا خلف النّص المصرّح به في خطاب الحداثة والذي يشكّل جوهر مشروع الإعلام اللّيبرالي، وإن كنّا نعتقد في الوقت ذاته أنّ حضورا لا واعيا ظلّ يتحكّم في إنتاج الخطاب الجديد، ويبرز هذا الحضور من خلال مقولتي" الدّين والدّيمقراطيّة" وذلك بالتّفكير في مقولة العلم من زاوية أيديولوجيّة يمكنها أن تكون بديلا للمشروع الفكري القديم.

وفي الأخير فإنّنا نستنتج أنّ للإعلام مفاهيم متعدّدة بحسب ما تضاف إليه، وتلتقي هذه المفاهيم جميعا في كونها أنّ الإنسانيّة في أزمة (موت المبادرة وشلل الطّموح)، وعليه يمكننا القول أنّ الإعلام تخطيط عقلانيّ يقوم على تواجد الذّات في استقلالها وحريّتها في إطار الجماعة التي لا تعارض مصالحها، والتي تهدف بدورها إلى تخليص الفرد من جميع أشكال الهيمنة الدّينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، لكن في إطار هيمنة المسيطرين على قنوات الإعلام (حركات سياسيّة أو أنظمة توافقيّة)، ويُعدّ مثل هذا التصوّر خير مُعبّر عن حقيقة وجوهر الخطاب الأيديولوجي من خلال تصعيده المعرفي مع التّصورات العلميّة وتجاوزه للنّشاطات الفكريّة الأخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- قائمة المراجع باللغة العربية:

1- توفلر ألفين، (1990)، حضارة الموجة الثالثة، دار الجماهرية للنّشر والتّوزيع والإعلان، مصر.

2- هنتنجتون صامويل، (1993)، الموجة الثانية، التحول الديمقراطي في أواخر القرن العشرين، دار سعاد الصباح، الكويت.

3- هابرماس يورغن، (1995)، الفلسفة والتصوّف اليهودي، المركز الثّقافي العربي، بيروت.

ب- قائمة المراجع باللغة الأجنبيّة:

1- Davidson Donald, (1991), Paradoxes de l'irrationalité. L'éclat, Paris.
2- Foukoyama Francis, (1992), the end of history and the last man mean, the free press, new york.
3- Fukuyama Francis, (2000), le Grand Bouleversement de la nature humaine et la reconstitution de l'odrde social, saint simon, Paris.
4- Fukuyamas Francis, (2012), le début de l'histoire : des origines de la politique à nos jours. Saint Simon, Paris.
5- Habarmas, Jürgen, (1976), Connaissance et intérêt, Gallimard, Paris.
6- Ricoeur, Paul, (1985), Le temps raconté ; temps et récit, Seuil, Paris.